صفحات من تاريخ الاستشراق

- ٧ -

يذهب جمهور المستشرقين إلى أن الإسلام كان نتيجة تطور حياة العرب في الجاهلية وأنه ، بدراسة الأوضاع التي كانت سائدة قبله ومعرفة علاقات بلاد العرب بالأمم المجاورة ، يمكن الكشف عن العناصر التي يتألف منها ، وإدراك المؤثرات التي أدت إلى ظهوره ثم ساعدت على انتشاره وقد اهتم المستشرقون بدراسة أحوال العرب قبل الإسلام في أطراف الجزيرة الشمالية ، وبحثوا في مظاهر الحضارة لدى الأنباط وفي تدمر وعند الغساسنة والمناذرة وملوك كندة كما حاولوا التنقيب عن آثار اليمن القديمة وقراءة النقوش الكتابية المعينية والسبائية والحميرية . وعلى الرغم من تقدم الدراسات الأثرية فإنها مازالت محدودة ، جزئية لا تسمح بتكوين فكرة شاملة ، واضحة عن حضارة العرب القديمة وعن تأثيرها في نشأة الإسلام .

لذلك فقد تمركزت جهود المستشرقين ، في بادىء الأمر ، حول دراسة حياة العرب البدو عامة وسكان الحجاز خاصة . إلا أن هذه الأبحاث لا تقتصر على قبائل العرب في القديم ، بالاستناد إلى الأخبار التي تناقلها المؤرخون الملدون وإلى الأشعار الجاهلية ، بل تشمل أيضاً وصف عادات البدو وطبائعهم في العصر الحديث ، لأن هؤلاء المستشرقين يعتقدون بأن أوضاع العرب البدو في هذا الوقت تشبه في جوهرها ما كانت عليه قبل الإسلام . .

(روبرتسون ـ سميث) :

في أواخر القرن التاسع عشر احتل البحاثة الإنكليزي (وليام روبرتسون سميث — William Robertson Smith) [١٨٤٦ — ١٨٩٤] أستاذ اللغة العربية في (كمبريدج) مكانة رفيعة بين المستشرقين . بمحاضراته عن ديانة الساميين (١) التي اعتنى فيها بالدراسات المقارنة عن طقوس القرابين لدى الشعوب السامية المختلفة ، وجمع كثيراً من المعلومات عن عقائد العرب القدماء في اليمن . وبعد أن قام بين سنة ١٨٧٩ و ١٨٨١ برحلات إلى مصر وسورية وجزيرة العرب حتى جدة والطائف نشر دراسته الشاملة عن القرابة والزواج في بلاد العرب القديمة ، (٢) التي حاول فيها أن يصور لنا تطور الأوضاع الاجتماعية ولا سيما نظام الزواج عند قدماء العرب . والشهرة الكبيرة التي نالها كتاب (روبرتسون — سميث) لا ترجع إلى تعمقه ودقته في البحث فحسب ، بل كذلك إلى الفرضية التي وضعها عن مراحل التطور الاجتماعي من نظام (حق الأمومة) إلى (النظام الأبوي) . وهذه الفرضية تستند ، قبل كل شيء ، إلى بعض القصص الغريبة التي يرويها الجغرافي اليوناني (سترابون) عن أنواع الزواج الشاذة لدى العرب ، مثل انتقال الرجل إلى قبيلة زوجته وانتساب الأولاد إلى أخوالهم ثم تعدد الأزواج وما يشبه ذلك من الأخبار التي يشك كثيراً في صحتها ...

---

(١) Lectures on the Religion of the Semites. Cambridge 1889.

(٢) Kinship and Marriage in early Arabia London 1885.

(ولهاوزن) :

من أهم المؤلفات عن العرب القدماء كتـاب المستشرق الألماني المشهور (يوليوس ولهاوزن Julius Wellhausen) عن بقايا الوثنية العربية »[١] الذي نشر سنة ١٨٨٧ والذي ما زال يعتبر المرجع الأساسي في هذا الموضوع . وقد اعتمد المؤلف هنا بالدرجة الأولى على كتاب (الأصنام) لابن الكلبي . وهو يرفض ما ذهب إليه (روبرتسون — سميث) من وجود (الطوطمية) عند العرب القدماء كما يعارض رأي المستشرق (شبرنغر) في أن عبادة الجن كانت أساس الوثنية العربية ثم يسعى إلى أن يبين كيف بدأت الوثنية العربية تتفسخ قبل الإسلام وكيف أخذت تتكون بين العرب فكرة (الله) التي دعا إليها الإسلام بعد ذلك ، فقضى على الوثنية نهائياً وإن اقتبس عنها بعض الطقوس كما في شعائر الحج على الأخص .

والـكلام على شخصية (ولهاوزن) وطريقته في النقد العلمي يحتاج إلى بحث خاص لاستعراض دراساته الأصلية المتنوعـة عن التوراة وعن الشعر الجاهلي وعن مدينة (يثرب) قبل الإسلام وعن الأحزاب الدينية — السياسية المعارضـة في صدر الإسلام ثم قبل كل شيء كتـابه العظيم عن « تـاريخ الدولة العربية » .

(ياقوب) :

وهناك مستشرق ألماني آخر سعى إلى وصف عادات العرب البـــدو وأخلاقهم قبل الإسلام بالاستناد إلى المصادر العربية وفي الدرجة الأولى إلى الشعراء الجاهليين ، ونقصد بذلك (جورج ياقوب Georg Yacob)

(١) Reste arabischen Heidentums Berlin 1887.

في كتابه « حياة العرب البدو القدماء »[١] وكان (ياقوب) قد بدأ بدراسة اللاهوت ولكنه سرعان ما انصرف إلى الاستشراق واختار موضوعاً لأطروحته تجارة العرب مع ألمانيا في القرون الوسطى ، وظل يهتم دوماً بالبحث في « تأثير الشرق في الغرب » حتى أصدر كتاباً بهذا العنوان في سنة ١٩٢٤ ،[٢] ثم نشر في سنة ١٩٢٧ « تقارير الوفدين العرب إلى قصور أمراء الجرمان في القرنين التاسع والعاشر . »[٣] ..

(الغساسنة والمناذرة) :

بعد نشر تاريخ الطبري اعتباراً من سنة ١٨٧٩ وجد فيه علماء الاستشراق مصدراً هاماً لدراسة تاريخ العرب والإسلام فأسرع (نولدكه Nöldeke) إلى تأليف كتابه عن « تاريخ الفرس والعرب في عهد الساسانيين » ثم كتابه عن « ملوك الغساسنة من آل جفنة »[٤] بالاستناد إلى المصادر العربية في الدرجة الأولى مع الاستعانة ببعض المصادر الفارسية والبزنطية . كذلك فعل المستشرق الألماني (ج . روتشتاين G. Rothstein) في كتابه عن « سلالة اللخميين في الحيرة » ثم المستشرق السويدي (اولينذر Olinder) في كتابه « ملوك كندة من أسرة آكل المرار »[٥] .

---

(١) Altarabisches Beduinenleben Berlin 1897 .

(٢) Der Einfluss des Morgenlades auf das Abendland. Berlin 1924 .

(٣) Arabische Berichte von Gesandten an germanische Fuerstenhoefe aus dem 9. und 10. Jahrhundert , Berlin 1927 .

(٤) Die Ghassanischen Fuersten aus dem Hause Gafna . Berlin 1887 .

(٥) G. Olinder , The Kings of Kinda of the family of Akil al - Murar , Lund 1927 .

(دوسو) :

أما المستشرق الفرنسي (رينيه دوسو René Dussaud) فإنه لم يقتصر على المصادر العربية ، بل انصرف في أوائل هذا القرن إلى التنقيب عن الآثار القديمة ودراسة النقوش الكتابية في بادية الشام لمعرفة كيفية تسرب القبائل العربية إلى سورية وانتقالها من البداوة إلى الحضارة . وهو الذي نشر الكتابات الصفوية وترجمها واكتشف في جبال الصفا ضريح الملك (امرىء القيس بن عمرو) . وقد تبين من النقش على الضريح أن هذا الملك قد مات سنة ٣٢٨ ميلادية فهو ملك الحيرة نفسه الذي تذكره الروايات العربية .

وإلى (دوسو) يرجع الفضل في أنه استطاع ، في كتابه عن « العرب في سورية قبل الإسلام » (١) ، البرهان على أن العرب قد توطنوا في سورية منذ عهد قديم جداً كما إن دراساته عن الكتابات الصفوية ، التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني بعد الميلاد ، قد أظهرت أن القبائل العربية — الصفوية ، التي هاجرت في وقت متأخر ، كانت لا تزال قريبة من البداوة في عاداتها ومحافظة على لغتها العربية وتستخدم في الكتابة الخط اليمني . وهذه الكتابات الصفوية شبه الكتابات الثمودية واللحيانية التي عثر عليها أيضاً في شمالي الحجاز وتتفق معها في أسماء الآلهة وعلى الأخص في ذكر اسم (الله) .

(١) Les Arabes en Syrie avant l'Islam, Paris 1907.

(جوسان) و (سافينياك) :

وعندما بدأ العمل في إنشاء الخط الحديدي إلى الحجاز في أوائل هذا القرن جاءت بعثة افرنسية للتنقيب عن الآثار في الحجر (أي مدائن صالح) وفي العلاء وتيماء وتبوك على طريق الحج وكانت البعثة تحت إشراف المستشرقين الفرنسيين الراهبين (جوسان وسافينياك) (Jaussen et Savignac) اللذين نشرا بين سنة ١٩٠٧ و ١٩١٤ عدة مجلدات عن نتائج هذه التنقيبات مع نصوص النقوش الكتابية المعينية واللحيانية والثمودية ومعلومات قيمة عن قبائل البدو في بلاد (موآب) (١) .

(دوتي) :

بينما اتجهت أنظار المستشرقين الذين ذكرنا أسماء البعض منهم إلى دراسة أحوال بلاد العرب في القديم وتمركزت عنايتهم حول الناحية التاريخية إذا بغيرهم من الباحثين يوجهون كل اهتمامهم إلى أوضاع جزيرة العرب المعاصرة بعد أن ازداد التنافس الاستعماري في أواخر القرن التاسع عشر وأخذت بلاد العرب تشغل مكاناً بارزاً في المخططات السياسية والاقتصادية .

ولا شك في أن المستشرق والرحالة الإنكليزي (تشارلس دوتي — Tharles Doughty) [١٨٤٣ — ١٩٢٦] يأتي في مقدمة هؤلاء الباحثين وهو يستحق أن نتوقف عنده قليلاً لأنه أصبح ، من وجوه عديدة أنموذجاً لغيره من مشاهير الرحالة الإنكليز .

---

(١) Jaussen et Savignac : Mission archéologique .
t. I . De Jerusalem au Hedjaz , Medain - Saleh . Paris 1909 .
t. II . El - Ela , d'Hegra à Teima , Harrah et Tebouk , Paris 1910
t. III . (3 vols) : Texte et Atlas . Paris 1914 .

سكن (دوتي) في دمشق لتعلم اللغة العربية وقام برحلات متعددة بين القبائل البدوية وهو ينقب عن الآثار القديمة في شبه جزيرة سيناء وفي مصر ، ويدرس أحوال البلاد وعادات القبائل ولهجاتها . وحين تجواله في الأراضي المجهولة حول (معان) أخبره بعض العربان عن وجود كتابات نبطية وحميرية في الحجر (مدائن صالح) فقرر أن يسافر إلى الحجاز متنكراً وانضم في سنة ١٨٧٦ إلى قافلة الحجاج في دمشق وأطلق على نفسه اسم خليل . ويبدو أن أمره افتضح في الطريق فمنعه أمير الحج ، الباشا التركي ، من متابعة السفر إلى مكة ، واضطر إلى البقاء مدة في الحجر حيث قام بتصوير الآثار واستنساخ النقوش الكتابية التي أرسل بعضها إلى العالم الفرنسي (أرنست رينان) ، ونشر هو نفسه القسم الآخر في باريس سنة ١٨٨٤ بعنوان « وثائق كتابية منقوشة جمعت في شمالي جزيرة العرب » (١) . ثم اندس (دوتي) بين عرب (شمر) وتعرض إلى أخطار كثيرة ومصاعب كبيرة حتى بلغ الطائف وقابل هناك شريف مكة الذي أشفق عليه وساعده على الوصول سالماً إلى جدة والعودة إلى بلاده في سنة ١٨٧٨ .

استطاع (دوتي) في رحلاته أن يقوم بدراسات دقيقة عن طبيعة البلاد وجبالها ووديانها وعن تكوين طبقات الأرض وتوزع المياه بالإضافة إلى أبحاثه وتنقيباته الأثرية . على أن أهم ناحية عني بها هي عادات قبائل العرب البدو وتقاليدهم وسائر أحوالهم . وبعد عودته إلى بلاده قضى مدة سبع سنوات وهو يرتب وينسق المواد الفنية والمعلومات الكثيرة التي جمعها وأضاف إليها مشاهداته وملاحظاته وآراءه حتى تألف منها كتاب عجيب في مجلدين ضخمين بعنوان « رحلات في بلاد العرب الصحراوية . » (٢)

---

(١) Charles Doughty, Documents épigraphiques recueillis dans le nord de l'Arabie. Paris 1884.

(٢) Charles Doughty, Travels in Arabia Deserta Cambridge 1888.

وقد اتبع (دوتي) أسلوباً خاصاً في الكتابة واستخدم تعابير قديمة من اللغة السكسونية واقتبس كلمات واصطلاحات عربية حتى صار من الصعب فهم كلامه ، ولم تقبل دور النشر طبع كتابه إلى أن تولت ذلك مطبعة جامعة (كمبريدج) في سنة ١٨٨٨ . وعلى الرغم من مظاهر الاهتمام والإعجاب التي استقبل بها هذا الكتاب الذي يتضمن حقاً فصولاً شيقة ، مثيرة ، والذي يعد من المؤلفات الأساسية ، المعتمدة لدى المستشرقين في هذا الموضوع ، فانه لم يكتب له الانتشار الواسع بين القراء وأصبح من الضروري إصدار طبعة مختصرة ، مبسطة منه في سنة ١٩٠٨ بعنوان « جولات في بلاد العرب » (١) . كتب مقدمتها المغامر الإنكليزي المشهور (لورانس) .

إن أهمية كتاب (دوتي) في تاريخ الاستشراق ترجع إلى أن مؤلفه ، الذي يعتبر من بناة الامبراطورية البريطانية ، لم يحاول إخفاء أهدافه الاستعمارية أو حقيقة مشاعره العدائية تجاه العرب والإسلام ! فهو ابن قسيس حافظ على نشأته الدينية وظل يخاطب الناس بلهجة المبشر ويظهر منتهى التعصب واللؤم في مناقشاته مع المسلمين ، ولا يتورع عن استعمال أبشع الكلمات عند ذكر عقائدهم وتقاليدهم وينتهز كل مناسبة لاتهام العرب بالوحشية والتعصب والعدوان . فما أعجب هذا الباحث الإنكليزي الذي يخاطب العرب المسلمين قائلاً : « إننا نحن المسيحيين لانخوض حروباً غير عادلة . وديانتنا هي ديانة سلام . ويستطيع الضعيف أن يعيش بيننا في أمان واطمئنان . » ، ثم ينشر الكلام في حين كانت انكلترا تغزو مصر بعد استيلائها على بلاد كثيرة في جزيرة العرب وغيرها باستخدام كافة وسائل التآمر والخداع والغدر والإرهاب ...

(١) Wanderings in Arabia. Cambridge 1908 .

(موزيل) :

ومن الرحالة المشهورين المستشرق النمساوي (آلويس موزيـــل — Alois Musil الذي تنقل في أوائل هذا القرن بين آثار البتراء وقبائل البدو في بادية الشام وشمالي الحجاز أو نجد . ومن المحتمل جداً أن تكون له علاقات بدوائر الاستخبارات الاستعمارية ، وهو بعد أن نشر ثلاث مجلدات عن « بلاد العرب الحجرية » [١] في (فينا) سنة (١٩٠٧ – ١٩٠٨) وعاش في أثناء الحرب العالمية الأولى بين العرب البدو في بادية الشام هاجر إلى الولايات الأميركية المتحدة ، حيث نشر من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٢٨ مؤلفاته الأخرى عن (بلاد العرب الصحراوية) [٢] و (شمالي الحجاز) [٣] و (شمالي نجد) [٤] وعن « تقاليد بدو الروالا وعاداتهم » [٥] وكلها تدل على اطلاع واسع ومعرفة دقيقة بأحوال البلاد وسكانها ..

(فون اوبنهايم) :

من أبرز الكتاب الذين بحثوا في حياة العرب البدو المستشرق والرحالة الألماني الأمير (ماكس فون اوبنهايم Max von Oppenheim الذي بدأ التجوال في الشرق منذ حوالي سنة ١٨٩٠ وتنقل من مراكش إلى الهند وافريقيا الشرقية والتحق في سنة ١٨٩٦ بالمفوضية الألمانية في مصر حيث

---

(١) Alois Musil, Arabia Petraea. 3. Vols. Wien 1907 - 1908.

(٢) Arabia Deserta. New York 1926.

(٣) Northern HeJaz. New York 1926.

(٤) Northern Negd. New York 1928.

(٥) Manners and Custums of the Rwala Bedouins. New York 1928.

عاش في الأحياء الشعبية واختلط بالناس واتقن اللغة العربية . ثم قام برحلات إلى سورية والعراق وأقام بين البدو واتصل بابراهيم باشا ، رئيس القبائل الكردية في شمالي سورية واستطاع أن ينال مساعدته للقيام بالتنقيبات التي أدت في سنة ١٨٩٩ إلى اكتشاف آثار (الميتانيين) في (تل حلف) ..

وعندما عاد (فون اوبنهايم) إلى التنقيب بين سنة ١٩١١ و ١٩١٣ كانت أعمال تمديد خط (برلين — بغداد) الحديدي تتقـــدم بسرعة ، وانكشفت بذلك العلاقة بين البعثات الأثرية والمشاريع الاستعمارية . فان دراسة أحوال البدو لاتهدف في الغالب إلى مجرد المعرفة العلمية ، بل كذلك إلى أغراض سياسية .

على أنه لا بد من الاعتراف بأن (فون اوبنهايم) قد انصرف بعد الحرب العالمية الأولى إلى تدوين نتائج أبحاثه العلمية فنشر في سنة ١٩٣١ كتابه عن آثار (تل حلف) (١) ثم بدأ فى تأليف كتابه الضخم عن « البدو » وانتهى أخيراً إلى تأسيس جمعية الأبحاث العلمية وقف عليها أمواله . وقد استعان المؤلف باثنين من المستشرقين الاختصاصيين في تحقيق المصادر وتنسيق المواد ، هما (بروينليخ – E . Braeunlich) و (قاسكل W. Caskel فنشر المجلد الأول في سنة ١٩٣٩ (٢) والمجلد الثانى سنة ١٩٤٣ في لايبزيغ ثم نشر (قاسكل) وحده المجلد الثالث في جزءين في (ويسبادن) سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٣ .

---

(١) Freiherr von Oppenheim , Der Tell Halaf Leipzig 1931 .

(٢) Max Freiherr von Oppenheim Die Béduinen .
t. I. II (Erich Braeunlich und Werner Caskel Leipzig) 1939 - 1943 .
t. III (W. Caskel) vols (1 — 2) Wiesbaden 1952 - 1953 .

إن كتاب (البدو) الذي ينقسم إلى خمس مجلدات يتضمن دراسة شاملة ، دقيقة للموضوع حسب تقاليـد المستشرقين الألمان . وقد راجع المؤلف ومساعداه معظم المصادر الكتابية عن تطور البدو عبر التاريخ وعن أحوالهم الحاضرة كما سجل (اوبنهايم) مشاهداته وأحاديثه مع البدو أثناء رحلاته العديدة بين القبائل العربية في سورية والعراق . ومع ذلك فان الكتاب لا يخلو من بعض الأخطاء والنقائص بسبب ضخامة الموضوع وتشعبه وصعوبة الاتصال بجميع القبائل والحصول منها على المعلومات الدقيقة ، الموثوقة ...

الدكتور محمد كامل عياد